تحويل القبلة

عن القدس الى مكة

بقلم شيخ العروبة
الأستاذ أحمد زكى باشا

الفصل الثانى

ما هى الحكمة فى هذا التحويل ؟

— ١ —

علينا أن نرجع القهقرى ، وأن نعود الى عصر النبوة فى « أم القرى » .

ففى أوائل البعثة وتحت ظلال الكعبة ، كان خير الرسل الكرام وسيد الخلق على الاطلاق يدعو قومه الأقربين الى الدين الجديد ، دين التوحيد ، فيكاشفهم بالوحى ليلا ونهاراً ، ويصدع بالأمر سراً وجهاراً .

وفى خلال ذلك ، يقيم الصلاة متوجهاً صوب الكعبة (على قول مرجوح) .

أما القول المعتمد عند أهل البصر (عن ابن عباس وغيره من أكابر الصحابة) فهو أنه عليه الصلاة والسلام كان يولى وجهه شطر الصخرة التى فى بيت المقدس ، دون أن يستدبر الكعبة .

وما زالت حاله على هذا المنوال ، من الدعوة الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومن الصلاة الى ناحية الصخرة حتى ابتلاه ربه بالهجرة ، كما كتبها على الأنبياء قبله .

وقد اختار الله مدينة « يثرب » لهذه الكرامة . فأصبحت ، بعد إشراق أنوار النبوة عليها وهى « المدينة » على ما جاء فى التنزيل الحكيم ، كما صارت عند الناس « المدينة المنورة » بطريق الاختصاص ، من باب التميز والتكريم . ولن تزال كذلك بفضل الله الى يوم النشر والحشر .

كان السواد الأعظم من أهلها يهوداً ، على ما أثبته ابن عباس .

وسأتولى بيان أوليتهم فى أرض الحجاز ، بطريق الايجاز .

— ٢ —

تبين لى ، بعد مراجعة التواريخ المعتمدة المعتبرة ، أن اليهود نزحوا الى وادى القرى بأرض الحجاز ، على فوجين فى عصرين متباعدين .

فأما الفوج الأول ، فكان من الذين خالفوا أوامر موسى الكليم ، حينما خرج ببنى اسرائيل من وادى النيل الى أرض التيه .

وأما الفوج الثانى ، فقد لحقوا باخوانهم هؤلاء بعد خراب الهيكل ، وهو البيت المقدس ، على عهد الطاغية الجبار بختنصر (نبوخذ نصر) .

ترتب على استيطان هؤلاء اليهود بأرض العرب ، وعلى معايشتهم لأبناء يعرب ، أنهم تأثروا بعامل البيئة واصطبغوا بفعل المجاورة ، فاستعربوا . وكان من نتيجة هذا الاندماج فى سلك العروبة ، أننا رأينا بعضهم فى أيام الجاهلية قد اكتسب من هذه المخالطة تلك الشمائل وهاتيك السجايا التى كانت ولا تزال تاج العروبة من قديم الزمان الى الآن .

ومن جهة أخرى رأينا فريقاً من أبناء العروبة قداستهوتهم اليهودية ، فتهودوا . وزادهم الايمان برب موسى محامد وفضائل فوق التى توارثوها عن عدنان وقحطان . فقد آمن بالتوراة رهط من عرب الشمال ، كما حصل من اخوانهم فى الجنوب ، متابعة للملك ذى نواس . وهنا مكان للشرح لما فيه من عبرة وطنية !

ذلك أن مشاكل الجوار وسياسة الاستعمار ، كانتا قد دفعتا الأحباش الى احتلال أرض اليمن . والتبشير قديم . ولكنه قد يكون مقروناً بما يوجب النفور من الصليب ومن الانجيل . فقد رأى ذو نواس من المحتلين إسرافاً فى الجبروت والطغيان ، يخالف ما كان يسمعه من الأفواه عن المسيح وعن وصايا اكبر رسول للسلام . فبلغ من كراهته للاحتلال الأجنبى ولدين النصرانية ، بل لأوثانه القديمة الجامدة وأصنامه العتيقة الهامدة أنه انتهى الى ترمق الخلاص لدى الاله الذى نجى بنى اسرائيل وأخرجهم من ذل الرق الى نعيم الحرية . وحينئذ لجأ ذونواس الى موسى الكليم والى شريعته وناموسه . فآمن بالتوراة . وجرى قومه على سننه لطلب الخلاص من الاضطهاد الواقع عليهم باسم الصليب وتحت راية الصليب . فكان ذلك سبباً لزيادة الضغط الاحتلالى بوسوسة المبشرين وبدسيسة الاستعماريين . فلما أيقن ذونواس بعجزه عن دفع الضرر عن وطنه ، أبى عليه

شممه أن يرى بعينه ما حل بقومه . ومن أجل ذلك آثر الموت على الحياة . فاقتحم البحر بفرسه . وكان هذا آخر العهد بذلك الملك المتفانى فى حب وطنه .

فاذا حدثك التاريخ الصادق، يافتى العرب، عن مفاخر السموأل وغير السموأل من كرام اليهود المستعربين ، أو من أماجيد العرب المتهودين ، فقد انكشف لك السر ، وظهرت حقيقة الأمر . فافهم ذلك واذكره .

— ٣ —

فلما استقر النبى العربى الكريم فى « المدينة » انقسم يهودها الى ثلاث فئات :

(١) — جماعة آمنوا

(٢) — فريق نافقوا

(٣) — وآخرون أخذتهم العزة بالاثم

وكلامنا لا ينصب إلا على الجماعتين الثانية والثالثة ، وهو منصرف بالطبع الى من لف لفهم وماشاهم من الاعراب الذين آثروا الشرك وعبادة الاوثان على الايمان بالواحد الأحد الفرد الصمد .

إن اليهود أهل كتاب سماوى ، وهم يؤمنون بالاه واحد ، فلذلك كان النبى عليه الصلاة والسلام يستسهل استمالتهم ، ويستصوب إلانتهم ، ويأمل هدايتهم .

وكان وهو بمكة — كما قلنا — يصلى الى بيت المقدس ، قبلة اليهود .

— ٤ —

فلما هاجر الى المدينة ، صدر له الامر بالصلاة الى بيت المقدس (فى قول) أوصار له الخيار فى التوجه بالصلاة حيثما أراد (فى قول ثان) .

وهاتان النظريتان ترميان إلى أمر واحد : استئلاف اليهود .

فاما النظرية الأولى ، فهى التى جرى عليها جار الله الزمخشرى بقوله فى « الكشاف » إن « النبى كان يصلى الى الكعبة ثم أمر بالصلاة الى الصخرة ، تألفا لليهود » ، وانضم اليه المفتى أبو السعود بقوله فى تفسيره : « لما هاجر النبى ، أمر بالصلاة الى الصخرة تألفاً لليهود » . ووافقهما العلامة الألوسى ، حينما أكد لنا فى تفسيره ، أن « الصرف عن الكعبة لاستمالة اليهود » .

لكن أصحاب النظرية الثانية — وهى الراجحة عندى — يؤكدون أن النبى عليه الصلاة والسلام قد شرفه الله بأن فوض له اختيار القبلة فى وقت الصلاة ، وأنه عليه الصلاة والسلام قد آثر البقاء فى محل الهجرة على ما كان عليه فى موطن البعثة . وحامل الراية فى هذه الرواية هو أبو العالية . فقد أفادنا أن الرسول الاعظم اختار بيت المقدس " لكى يتألف أهل الكتاب » أى اليهود والنصارى .

على أن أرباب التحقيق تخلصوا من هذا التعميم الى التخصيص ، فقالوا بان اليهود — واليهود وحدهم — هم المقصودون بهذا الاختيار فى سبيل الايلاف . فقد جاء عن البراء بن عازب وعن عكرمة وعن الحسن البصرى — وناهيك بهم ! — انه صلى الله عليه وسلم " كان يستقبل بيت المقدس ، وهى قبلة اليهود . فاستقبلها سبعة عشر شهرا ليؤمنوا به ويتبعوه » .

وأقوال جلة المفسرين متضافرة على هذا المعنى ، أعنى استئلاف اليهود واستجلابهم الى شريعة القرآن .

فكان النبى — وقد بعثه الله رحمة للعالمين — يتمنى ويؤمل ويريد أن يؤمن به اليهود . وكان يسعى لاقناعهم بكل الوسائل (ومنها القبلة) ليدخلوا فى الدين الجديد ، دين التوحيد الذى جاء به من عند ربه ، لهداية الخلق الى أقوم طريق .

بل رأيناه — قبل الهجرة — يتمنى ويؤمل ويريد أن يؤمن به نفر من عشيرته الاقربين (كما أشرنا الى بعض ذلك فى الفصل السابق المنشور فى الجزء الثالث من هذه المجلة)

وهل نحن فى حاجة الى القول بان اليهود قد اغتبطوا وابتهجوا حينما رأوا نبى الاسلام يتوجه الى قبلتهم التى ببيت المقدس ؟

على أنه حينما دعاهم الى الله ، أعرضوا عن هداه ، بل عارضوا مسعاه ، بل أجمعوا أمرهم على أذاه ، الى أن وصلوا الى دس السم فى الدسم .

وفى خلال مجادلتهم له وحواره معهم ، كانوا يستطيبون التهكم عليه والزراية به ، فيعجبون كل العجب من مخالفته لشريعتهم مع اتباعه لقبلتهم (على مارواه مجاهد) . بل قالوا بصريح العبارة : " والله ! ماعرف محمد وأتباعه قبلتهم ، حتى هديناهم » (على مارواه ابن زيد)

(للبحث بقية) أحمد زكى باشا